حدائق الآداب

لأبي محمد عبيد الله بن محمد بن
شاهمردان الأبهري

تحقيق: أ. د. محمد بن سليمان السديس

(ط ٢، الرياض، ١٤١٦هـ)

عرض:

د. أبو أوس إبراهيم الشمسان

اللغة صورة صادقة عن حياة الأمة تعبر عن دقائقها . ويشهد كل جيل تغيراً قد يكون سريعاً أو بطيئاً حسب مجالات الحياة نفسها ، غير أن ما يشهده العالم من ثورة في المعلومات ومن قدرة هائلة على [illegible] يجور على بعض الثقافات . وهذه الشكوى من طغيان أشكال من الحياة على أشكال قديمة كان مستمراً تشهد به مؤلفات العلماء القدماء الذين نعرض لواحد منهم . وهو الأبهري .

يذكرنا هذا الكتاب من حيث الغرض من تأليفه ومن حيث المنهج الذي انتهجه صاحبه بكتاب متقدم هو (أدب الكاتب) لابن قتيبة ، إذ دفع ابن قتيبة إلى تأليف كتابه ما رآه من انصراف أهل زمانه عن المعرفة العربية المتصلة بتفاصيل الحياة ودقائقها ورأى منهم تعلقاً بألفاظ الفلاسفة والمناطقة ، قال " فلما رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظاً من عنايتي وجزءاً من تأليفي فعملت لمغفل التأديب كتباً خفافا في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيته من التطويل والتثقيل لأنشطه لتحفظه ودراسته إن فاءت به همته وأقيد عليه بها ما أضل من المعرفة وأستظهر له بإعداد الآلة لزمان الدلالة أو لقضاء الوطر عند تبيين فضل النظر .... " . ص ٩ .

وأما الأبهري فقال في كتابه : " أما بعد فقد وجدت أكثر أهل زماننا قد وضعوا بمكان ضنك ، ومحل وعر ، من الحاجة إلى اقتباس كلام العرب ، واقتناء العلم بمنطقها ، والمعرفة بلغاتها ، وأجناس ما فيها من الأسماء والأوصاف والحدود والرسوم ، للأضطرار عند العبارة ، والإخبار والإبانة ، إلى إعطاي المعاني ألفاظها ، وإخراجها في أحسن لباسها ، ورأيت ذلك لايدرك إلا بانتحال كلام العرب والاعتياد له ، والتدرب به ، وحفظ أصوله، ومجاري فروعه ، والعلم بتصاريفه وطرق مقاييسه " (حدائق الآداب ، ص ١) .

ويذكر صاحب الكتاب فضل العلماء الذين دونوا ما الناس بحاجة إليه ، ولكنه وجد بالتأمل أنها كثيرة العدد عسيرة يصعب أن تحاز ، فرأى أن يجمع في كتاب

واحد ما يحتاج إليه الكتاب والمتحلون بالآداب المنسوبة إلى أدب العرب الذي هو النحو والشعر واللغة . (حدائق الآداب ، ص١ ، ٢) .

ويتألف هذا الكتاب كما بين صاحبه من ثلاثين كتاباً تسعة منها عن الإنسان والحيوان، وهو قد يجمع في كتاب واحد ما يخص الحيوان بعامة وقد يخصص كتاباً لحيوان بعينه مثل كتاب الخيل ، وكتاب الإبل ، وكتاب الشاء ، ثم جعل ثلاثة كتب للصفات والأسماء والأزمنة ، وجعل كتابين للنبات والحرث والزرع ، وكتاباً للسلاح وآخر للميسر وكتاباً للأمثال ، وجعل أربعة كتب ثلاثة للألفاظ المستعملة بين الناس وما يختلف منها وما يتفق ، وواحداً للمثلثة لفظاً ، وجعل كتباً تعالج الظواهر اللغة منها ما يتصل بالتصحيح اللغوي ومنها ما يهتم بالإعراب وهو علم النحو فدرس الأبواب النحوية على نحو موجز وجعل فيه باباً للتذكير والتأنيث ، على الرغم من أنه خصص كتاباً لهذا بعد ذلك ، وهو الكتاب السادس والعشرون ، ومنها ما يهتم بالرسم واهتم بالجوانب الصرفية فجعل كتابا للممدود والمقصور وكتاباً للتذكير والتأنيث ، وكتاباً للتثنية والجمع ، وجعل كتابين للغة الخاصة في السنن والأحكام والدواوين وختم الكتاب بكتاب عن العروض.

ولقد بذل المحقق جهوداً كبيرة في سبيل إخراجه وهي جهود لا يحسها إلا من كابد إخراج هذا النوع من الكتب التراثية التي هي متون لغوية يحتاج كل لفظ منها تدقيقاً ومراجعة وعودة إلى أصول اللغة ، وليست مما يمكن أن يعين السياق في تحديد أصله ولذلك نجد حواشي الكتاب مليئة بتعليقات المحقق الكاشفة عن جهوده على الرغم من أنه تجنب طريقة بعض المحققين الذين يثقلون الحواشي بما بين النسخ من فروق لا تؤثر على المعنى وما لا أهمية له.

ومن الجهود المشكورة للمحقق ما عمد إليه من استكمال تفسير الغريب مما لم يفسره صاحب الكتاب ، ومن ذلك الإشارة إلى الألفاظ التي يذكرها صاحب الكتاب وليست معروفة في أمهات المعاجم وذكر ما يناظرها في تلك المعاجم .

وجعل المحقق لهذا الكتاب فهارس فنية تسهل الوصول إلى مادته ، وهي فهارس لولاها لبقي هذا الكتاب وأمثاله خزائن مغلقة يعسر على ذي الحاجة الوصول إليها في هذا الزمن الذي لم يعد القارئ بمطيق أن يقرأ الكتاب برمته أو أن يتحفظ مواضع مفردات يطلبها.